الاتحاد
الأربعاء 6 فبراير 2013 الغد 10.314
الموقع الإلكتروني: HTTP://WWW.ALITTIHAD.PRESS.MA البريد الإلكتروني: jaridati1@gmail.com

## الباحثة جوسلين داخلية، منسقة كتاب «المسلمون في تاريخ أوربا»

# صورة المسلم في أوربا انتقلت تاريخيا من إثارة الخوف إلى الازدراء، وهي تثير الهلع اليوم مجددا

جوسلين داخلية

صدر مؤخرا عن دار النشر الفرنسية "ألبان ميشيل" الجزء الثاني من المؤلف الجماعي الموسوم بـ"المسلمون في تاريخ أوربا"، وهو الكتاب الذي قام بتنسيقه كل من جوسلين داخلية، مديرة الدراسات في "مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية" والاختصاصية في التاريخ المغاربي، والباحث فولفغانغ كايزر.

خلافا للأفكار السائدة غربيا، يفسر الكتاب، يعود حضور المسلمين في أوربا إلى أزمنة غابرة، ووجودهم فيها سابق للمرحلة الكولونيالية وما تولد عنها وتلاها من هجرات اقتصادية. وإذا كانت بدايات هذا الحضور المسلم في أوربا قد ارتبطت بحروب القراصنة ونشأة العبودية، فإن بعض الأوربيين وجدوا، خلال تلك الحقبة، فرصا سانحة للترقية الاجتماعية في الدول الإسلامية.

عقب صدور الكتاب، أجرت النسخة الإلكترونية لأسبوعية "لو بوان" حوارا حول مضمونه مع الباحثة جوسلين داخلية، ونشرته في 2 فبراير الجاري.

## ترجمة: سعيد عاهد

□ ما الذي أردت توضيحه عن طريق كتاب "المسلمون في تاريخ أوربا"؟ هل كوننا جميعا مسلمين قليلا؟

■ ■ ربما. لقد تم اختزال العلاقات بين أوربا والإسلام، خلال مدة طويلة، في الاستعمار، كما لو أن كل شيء انطلق بينهما في القرن التاسع عشر. وهذا يشكل تناسيا لكون العلاقات بين ضفتي المتوسط قائمة منذ القدم، وأن عشرات المسلمين، أو بالأحرى مئات وآلاف المسلمين عاشوا في أوربا قبل موجات هجرة القرن العشرين بكثير. وفي الواقع، وخلافا لأطروحة المؤرخ هنري بيرين التي تزعم أن التوسع الإسلامي أدى إلى محاصرة أوربا مما سمح لها بالتشكل، وهي الأطروحة التي اقتبسها صامويل هنتنغتون في "صراع الحضارات"، (خلافا لهذه الأطروحة) فإن العلاقات لم تنقطع أبدا بين الشمال المسيحي والجنوب المسلم. وهذا جلي بشكل خاص منذ القرن السادس عشر، حين تخلت أوربا عن الحروب الصليبية وتطورت حروب القراصنة.

□ غريبة هي هذه العلاقات المبنية على الحرب والعبودية؟

■ ■ بالفعل، لكن هذه العلاقات لعبت دورا مهما في تاريخ التمثلات. فحرب القراصنة التي سيتواجه خلالها "البرابرة" مع الأوربيين طوال عدة قرون، ستخلق اقتصادا محوره العبودية، اقتصاد سيحصد ثمراته الطرفان معا. حينها، كانت أسواق العبيد الكبرى منتشرة في ضفتي المتوسط، كانت موجودة في الجزائر وطرابلس، ولكن أيضا في ليفورن ونابولي والبندقية ولافاليت... وانطلاقا من القرون الوسطى، ستوظف العديد من النساء المسلمات كخادمات منزليات في إيطاليا وإسبانيا. وفي فرنسا، سيشتري كولبير عبيدا مسلمين ليستغلهم في الأشغال الشاقة ببواخر الملك.

□ هل كان للدين دور ما؟

■ ■ لا. إنه البحث عن سواعد للعمل. الأمر إذن ذو بعد اقتصادي. ولقد كان وضع الخاضعين للأشغال الشاقة في البواخر محكوما باتفاقيات دبلوماسية تسمح بإعادة شرائهم أو مبادلتهم بآخرين. كما كانوا يتمتعون مبدئيا بحرية المعتقد. وهكذا، فقد تم العثور على بقايا مساجد خاصة بهم في مرسيليا وفي فيلفرونش- سور-مير. وبالإضافة إلى هذا، فالحضور الإسلامي لم يكن مقتصرا على العبيد، ذلك أن القرنين السادس عشر والسابع عشر احتضنا موجات هجرة مسلمة، إذ عبرت قبائل بأكملها مضيق جبل طارق للاستقرار في البرتغال خاصة. وكان يوجد أيضا لاجئون سياسيون في أوربا.

□ كم يبلغ عدد هؤلاء المهاجرين؟

■ ■ فرنسا بمفردها كانت تضم عدة آلاف. وقد تم تتبع مسارات غريبة لبعضهم، من بينهم خاضع للأشغال الشاقة بمدينة أنتيب تمكن من الفرار، وتم تعميده لاحقا في ليون قبل أن يتزوج في مقاطعة بروطاني مع زوجة من عين المكان. إن سجلات التعميد تعتبر مصدرا مهما للمعطيات، ذلك أن الكنيسة تولي أهمية قصوى للمسلمين الذي تم تنصيرهم. بل إنها تنظم بانتظام مراسيم ملؤها الفرجة هدفها تأكيد انتصار الإيمان الحقيقي على "الكفار".

□ ما صورة هذا المسلم الذي اعتنق المسيحية؟

■ ■ إنها صورة جد مفارقة. فالمسلم، من جهة، يعتبر سليل الإمبراطورية التركية بعمامته. وكان يقال إنه لوطي يعشق الغلمان الصغار ويهدد النساء. وفي الحقيقة، فإن هؤلاء كانوا يمثلون أقلية غير بارزة للعيان، بل "غير مرئية" كان يتم في كثير من الأحيان الخلط بينها وبين اليهود. وفي مارسيليا، كان المجبرون على الأعمال الشاقة في البواخر الملكية يشكلون جزءا من فضاء المدينة، إذ كانوا يمكثون في أرصفتها خلال فصل الشتاء، ويقومون بأعمال بسيطة أو يشتغلون في مصانع الصابون. أما في إيطاليا، فكان العبيد العموميون يقومون بتبليط الأرصفة وتعبيدها وتنظيفها. وفي إنجلترا، كان العديد منهم من الفنانين العاملين في الشارع العام، وهناك أغاني تمدح إنجازاتهم.

□ ومع ذلك، كانوا يتعرضون للازدراء؟

■ ■ لن ينغرس الازدراء في التمثلات فعليا إلا خلال القرن التاسع عشر مع الاستعمار، وإلى حدود تلك الحقبة، كان الشعور السائد لدى الأوربيين هو الخوف. لنتذكر أنه في سنة 1627 وصلت هجمات الجزائريين إلى إيسلاندا حيث أسروا 400 أسير، كما أنهم قاموا بالفعل ذاته في إيرلاندا وسواحل بريطانيا. لقد كان القراصنة المسلمون يمثلون قوة فعلية يجب أخذها بعين الاعتبار. كما أن فرانسوا الأول سعى إلى عقد تحالف مع العثمانيين، بينما حاولت إنجلترا الحصول على دعم المغرب لها ضد إسبانيا.

□ نحن في حضرة مجد العثمانيين إذن؟

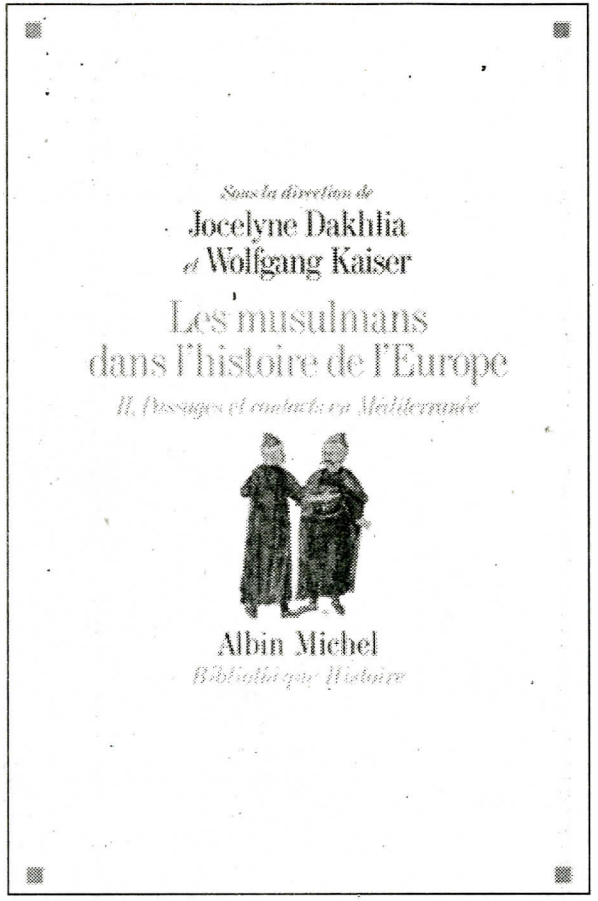


■ ■ أجل، ففي القرن السادس عشر، مثلما في القرن السابع عشر، كانت الإمبراطورية العثمانية تحظى بالتقدير، ومعها إدارتها وقوتها العسكرية. وكان المسلمون وسطاء ثقافيين بنفس قدر المسيحيين الشرقيين أو اليهود. وفي تونس، كانت تباع، في القرن السابع عشر، كتب بالحروف اللاتينية. لم نكن إذن في حضرة عالمين مختلفين على مستوى الفضول العلمي والفكري.

□ تبرزين، من جهة أخرى، أن العالم الإسلامي وهب العديد من الفرص للأوربيين.

■ ■ أجل، ويكمن السبب في كون المسلمين كانوا يستدعون إلى ديارهم أوربيين أحرارا، وكان هؤلاء يجدون هناك فرصا لارتقاء اجتماعي لافت للنظر. لكن الأمر لم يكن ممكنا في الاتجاه الآخر، في أوربا، ذلك أن المجتمعات الإسلامية لم تكن محكومة بالقرابة الدموية والسلالة بنفس قدر النظام العتيق في أوربا. يمكننا القول إذن إن العالم المسلم كان يمثل، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، جغرافية لاستقبال المهاجرين، مثلما هو حال كندا اليوم.

□ متى تخلق شعور التفوق لدى أوربا؟

■ ■ انتقد فلاسفة الأنوار، خاصة، تسلط الإمبراطورية العثمانية، وتلا ذلك الاستعمار والرومانسية ليكتمل الإحساس الأوربي بالتفوق. لكنه، وحتى بعد مرحلة استقلال المستعمرات في سنوات 1960-1970، كان تتم مقاربة الإسلام، في أوربا، كديانة قدرية، وهو معطى مرتبط جدا بفكرة التخلف. ومع 11 شتنبر 2001، ستتغير النبرة، ليصبح الخوف سيد الموقف من جديد، ومعه الإسلاموفوبيا، وذلك حتى في أوساط بعض الجامعيين.

□ هل ترغبين في بناء جسور بين الجغرافيتين عن طريق هذا الكتاب؟

■ ■ هل تعلم أن اللغة المالطية كانت عربية في الأصل؟ وأن الإسلام انتشر في البوسنة قبل الفتح العثماني؟ وهناك أيضا نوع من "الانتماء العثماني" في اليونان تعرض اليوم للنسيان. نحن نعيش تحت وطأة الأفكار المسبقة بكثرة، والاهتمام بالتفاوتات الدقيقة لا يهم أحدا. لكن دورنا نحن، بصفتنا جامعيين، يتجسد في رفض الصور التي تكون إما سوداء برمتها وإما بيضاء بأكملها، والبحث عن إعادة بناء الحقيقة. وإذا كان هذا الكتاب سيؤثر في هذا الاتجاه، فهذا أمر إيجابي وفيه يكمن هدفه.

**لن ينغرس الازدراء في التمثلات فعليا**
**إلا خلال القرن التاسع عشر مع الاستعمار،**
**وإلى حدود تلك الحقبة، كان الشعور**
**السائد لدى الأوربيين هو الخوف**